SEBHA UNIVERSITY JOURNAL OF HUMAN SCIENCES VOL.25 NO. 1 2026
DOI: 10.51984/EX4TP633

جامعة سبها للعلوم الإنسانية مجلة
Sebha University Journal of Human Sciences

Journal homepage: http://www.sebhau.edu.ly/journal/johs

زيارة أضرحة الأولياء "الطوارق في غات نموذجاً"

ربيعة محمد فايز أحمد

قسم التاريخ، الجامعة المفتوحة، جنزور، طرابلس، ليبيا

الملخص

هذه الورقة (زيارة أضرحة الأولياء " الطوارق في غات نموذجاً) هي نتيجة عمل ميداني قمت به في الفترة من 8/6/2004ف، وحتى 13/6/2004 ف، عندما كنت طالبة دراسات عليا، وكان مقره مدينة غات وضواحيها.

يدور موضوع هذه الدراسة حول معتقد أو عادة زيارة الأضرحة لدى الطوارق (في غات)، والتي مارستها أيضًا شعوب أخرى. يُمثل هذا المعتقد درجة من الفكر الديني، ويرتبط به ارتباطًا وثيقًا.

إن عادة زيارة الأضرحة ترتبط عموما بالفكر الديني للإنسان (قديماً كان أو حديثاً)، إذ كان يعتبرها (أي الأضرحة) بمثابة وسيط بينه وبين ربه (ربه خالقه)، وليس المقام نفسه، بل الشخص الموجود فيه أو من يشغل هذا المنصب (الوساطة)، والذي اكتسبه نتيجة مكونات تحددها عقلية الناس، والتي غالباً ما تكون ذات طبيعة دينية.

هناك العديد من التساؤلات التي تنتاب أصل هذه العادة، فربما تكون قد أدخلها الصوفيون إلى مناطق انتشار الطوارق أثناء انتشار الإسلام والفتوحات الإسلامية في تلك المناطق، أو ربما كانت ترجع بجذورها إلى عادات الشعوب الأفريقية، أو قد تكون نتاج أتخذه هؤلاء الطوارق للملائمة بين القديم (العادات والتقاليد القريبة من عادات الشعوب الأفريقية) والجديد (الأفكار والمعتقدات التي جاء بها الإسلام والمسلمين).

وربما تمثل هذه العادة محتوى متكامل يرتبط كل شيء فيه بجانب من جوانب حياة الطوارق، وهو محتوى أصيل لا علاقة له بتأثيرات خارجية، إلا أن تكون سطحية الفاعلية.

الكلمات المفتاحية:

إسلام
أضرحة
الأولياء
الطوارق
غات

Visiting the shrines of saints: "The Tuareg in Ghat as a model"

Rabiha Mohammed Fayz Ahmed

Department of History, Open University, Janzur, Tripoli, Libya

ABSTRACT

This paper is the result of fieldwork I conducted from June 8, 2004, to June 13, 2004, when I was a graduate student. The study was based on the city of Ghat and its environs. The subject of this study revolves around the belief or custom of visiting shrines among the Tuareg (in Ghat), which was also practiced by several other peoples. This belief represents a degree of religious thought and is closely linked to it. The custom of visiting shrines is generally linked to the religious thought of man, as he considered them to represent a mediator between him and his God, not the shrine itself, but rather the person in it or the one who occupies this position (mediation), who acquired it as a result of the components determined by the mentality of the people, which is often religious in nature. There are many questions surrounding the origin of this custom. It may have been introduced by Sufis to Tuareg areas during the spread of Islam and the Islamic conquests in those regions. It may have its roots in the customs of African peoples, or it may be a product of the Tuareg people's adaptation of the old (customs and traditions like those of African peoples) and the new (ideas and beliefs brought by Islam and Muslims). This custom may represent an integrated framework in which everything is linked to an aspect of Tuareg life. It is an authentic framework, unrelated to external influences, except for superficial effectiveness.

Keywords:

Islam
Shrines
Saints
Tuareg
Ghat

1. المقدمة

يدور موضوع الدراسة حول معتقد أو عادة زيارة الأضرحة عند الطوارق (في غات) والتي كان يمارسها عدد من الشعوب الأخرى.

*Corresponding author:
E-mail addresses: Rabiha.f@staff.ou.edu.ly

Article History : Received 15 August 2025 - Received in revised form 28 January 2026 - Accepted 05 February 2026

هذا المعتقد يمثل درجة من درجات الفكر الديني، ومرتبطة به تمام الارتباط.

لم يكن العمل الميداني يشمل مدينة غات بأكملها (وهذا ما تدلله مدة الدراسة) بل اقتصر العمل على بعض المناطق والأماكن، فزرنا بعضها لغرض موضوع الدراسة (زيارة الأضرحة) وهي البركت (تيتغست). وزرنا الأخرى بهدف الإطلاع على الأماكن الأثرية والتاريخية، وهي: ددج، أغرم أغرم نضاريف، الفيوت، تيجيدد.

ترتبط عادة زيارة الأضرحة، بالفكر الديني لدى الإنسان عموماً (سواء قديماً أم حديثاً)، فقد اعتبرها (أي الأضرحة) أنها تمثل وسيطا بينه وبين إلهه (ربه، خالقه) ليس الضريح بالفعل وإنما الشخص الموجود به أو من يحتل هذه المكانة (الوساطة) والذي أكتسبها بفعل مقومات تحددها ذهنية الناس، والتي غالباً ما تكون دينية الطابع .

وقد اختلف الاعتقاد بوساطة أصحاب الأضرحة (الشيخ الولي) لدى الناس بين زائري لهذه الأضرحة وبين عدم زائرين لها. ويظهر التشابه بين الفئتين في فكرة الاعتقاد في حد ذاته، أي إن الفئتين، تعتقدان بواسطة هذه الأضرحة الشيخ الولي (وأحياناً تكون العلاقة مع هذه الأضرحة علاقة غاية وليست علاقة وسيلة، أي وكأنها (الأضرحة) اعتلت أو ورثت مكانة الآلهة فأصبحت هي نفسها المسئولة عن تحقيق الحاجات، وهذا يظهر من صيغة بعض الأدعية، وكذلك من قوة الاعتقاد المحاط بها، والذي يفوق أحيانا الاعتقاد في الله عز وجل.

أما عينة الدراسة فشملت قطاعين- :

1 - قطاع النساء المسنات واللائي لم ينلن حظهن من التعليم (إلى حد ما).

2 - قطاع الفتيات الشابات المتعلمات.

على أن جُل المعلومات حصلنا عليها بالطبع من القطاع الأول، بسبب ممارستهن لهذه العادة أو على الأقل معرفتهن عنها عن طريق المعايشة مع ممارسيها من الأمهات والجدات، أما عن القطاع الثاني فهن سمعن عنها سمعاً فقط بسبب عدم وجودها حالياً.

وينتاب من يزورهم لأول مرة بعض الشعور بالاستغراب والاستعجاب من بعض أفعالهم وعاداتهم، وفي المقدمة لغتهم المبهمة غير المعروفة على الأقل على الغرباء، والتي تسمى تماهق أما كتابتها فتسمى تيفيناغ.

منهجية الدراسة:

تتبع هذه الدراسة المنهج الميداني الوصفي الذي يدرس الظاهرة في بيئتها الأصلية، ويعطيها وصفاً مفصلاً مع إجراء بعض المقارنات مع بيئات مشابهة لاستكمال النقص الموجود.

مشكلة الدراسة:

تكمن أشكالية الدراسة كون هذه العادة مرتبطة بالدين والخلفية التاريخية، ورغم دخول الإسلام للمنطقة إلا أنه لازالت هناك عادات قديمة تتم ممارستها بشكل مباشر وغير مباشر في ظل غياب دور الحكومة والإعلام، ورغم تحريمها دينياً (رأي الدين الإسلامي).

تظهر بعض التساؤلات الرئيسية في الموضوع وهي:

1. متى بدأت بالتحديد بوادر عادة زيارة الأضرحة عند الطوارق؟ وماذا تواكب زمنياً من الأحداث في الأقطار والمناطق المجاورة والغير مجاورة؟
2. ما هي الفترات التي ظهرت فيها قوة هذه العادة والفترات التي ظهر فيها ضعفها وما هو محتواها الثقافي؟
3. لماذا اقتصر الذهاب إلى الأضرحة على النساء دون الرجال، هل لابد أن تكون المرأة هي من تطلب الحاجة، أم أن الرجال على درجة من العلم والمعرفة دون النساء مما يؤهلهم لعدم تقبل هذه الخرافات؟
4. ماذا كان بالتحديد أصل أولياء الطوارق قبل موتهم، أو كيف كانت حياتهم؟ ولماذا يشوب الغموض على بعضهم؟ ويُقدس دون معرفة أصل له، هل هذا يدل على أهمية وسيطهم مع الله، أو يدل على قلة أهميته؟
5. ما هي الأسباب المباشرة والغير مباشرة لانتهاء عادة زيارة الأضرحة؟ وهل انتهت هي فعلاً؟

أهداف الدراسة

محاولة الحفاظ على الإرث الثقافي والتاريخي للمنطقة، بحفظ المعومات من مصادرها، ومعرفة إلى أي مدى لازالت هذه العادة تسيطر على عقول بعض الطوارق وعلى معتقدهم الديني.

أهمية الدراسة

هناك العديد من التساؤلات التي تنتاب أصل هذه العادة، فربما تكون قد أدخلها الصوفيون إلى مناطق انتشار الطوارق أثناء انتشار الإسلام والفتوحات الإسلامية في تلك المناطق، أو ربما كانت ترجع بجذورها إلى عادات الشعوب الأفريقية، أو قد تكون نتاج أتخذه هؤلاء الطوارق للملائمة بين القديم (العادات والتقاليد القريبة من عادات الشعوب الأفريقية) والجديد (الأفكار والمعتقدات التي جاء بها الإسلام والمسلمين). وربما تمثل هذه العادة محتوى متكامل يرتبط كل شيء فيه بجانب من جوانب حياة الطوارق، وهو محتوى أصيل لا علاقة له بتأثيرات خارجية، إلا أن تكون سطحية الفاعلية. لذلك كانت دراسة ظاهرة معينة (زيارة الأضرحة) عند شعب الطوارق يمكنها إلقاء الضو على عدة جوانب أخرى لحياة ذلك الشعب.

الموقع الجغرافي لمدينة غات: -

تقع مدينة غات في الجنوب الغربي من ليبيا ، مكونة الواحة الشمالية من مجموع الواحات المنتشرة في الصحراء الكبرى الوسطى، وهي تقع إلى الجنوب الغربي من غدامس وسبها ومرزق، وإلى شمال غرب أوزو، وإلى الشمال الشرقي من جانت، ويكون موقعها على درجة عرض 37،24 شمالاً وخط طول 27،7 شرقاً، وقد أقيمت المدينة على سفح جبل كوكمن الذي يصل ارتفاعه 667 م، وتعتبر جبال الأكاكوس أهم معالمها الجغرافية والتي تمثل أهمية تاريخية وآثارية، وهي بمثابة جدران جبلية عالية تقع في شرق المدينة، والتي لا تبعد كتلتها المركزية سوى 200 كم من غات ويبلغ ارتفاعها 1400م[1].

كانت الكهوف والمخابئ المختلفة الموجودة في هذه الجبال عاملاً مساعداً على ايجاد ضروب من الفن الصخري الصحراوي وازدهاره بالتالي على يد أناس أبدعوا فيه، ويفيد ذلك في دراسة التاريخ المبكر لهذه المنطقة[2]، وقد قسمت رسومات الفن الصخري هذه إلى أدوار فنية وضعها فابريتشيو موري[3]. هذا عدا عن بعض السلاسل الجبلية الأخرى، وهي بذلك تتمتع بموقع على سفح جبلي ينفتح على واد عريض تتوفر فيه المياه وإمكانات الرعي، إضافة إلى الطرق التي تربطها بالواحات المنتشرة في أرجاء الصحراء، كذلك وفرة العيون والآبار

في المنطقة، كل هذه العوامل كان لها أثر إيجابي في نشأة المدينة وتطورها بالتالي إلى مركز حيوي يقع على طرق القوافل الرئيسي الذي يربط ليبيا بالمغرب الأقصى وأواسط أفريقيا[4].

وهي تمثل عاصمة الطوارق يأتون إليها للهو والتزود بالتمر والمواد الأخرى، وقد أصبحت مركزاً تجارياً كبيراً للصحراء والسودان وأواسط أفريقيا، فلم تعد طريق وصل فحسب، بل أصبحت أيضاً مقصداً، إليها تأتي جميع قوافل السودان وتوات التي تقع على مسيرة شهر من غات[5].

تسمية الطوارق: -

تختلف الآراء في تسمية الطوارق، حيث يعتقد البعض أن أصل الاسم هو توارك وذلك لعدة أسباب منها، أنهم تركوا العمران وحياة المدينة وفضلوا الحياة في الصحراء وعلى الطبيعة، ومنها أنهم تركوا الصغائر وتنزهوا عنها. ثم تحولت الكلمة مع مرور الايام الى توارق أو طوارق[6].

ورأى آخر يرى أنها جاءت من دمج عبارة تركوا دينهم، وأصبح ذلك معلما لهم التكرار ارتدادهم عن الدين الاسلامي[7].

اما نطاقهم الجغرافي، وخاصة قبل انتشار الإسلام لديهم، فكان فسيح الرقعة يمتد من غدامس جنوب طرابلس شرقاً، حتى المحيط الاطلسي غرباً، أي المناطق الصحراوية التي تلى سلسلة جبال درن، كما يمتد من جبال أطلس الكبرى (درن) في الشمال حتى مصب نهر السنغال، ويمتد إلى مقربة من منحنى نهر النيجر، بل أن وطنهم يتخطى هذا النهر إلى الشرق حتى مدينة تادمكة في قلب الصحراء الكبرى[8] وبصفة عامة فالمطر نادر في بلادهم، ولكن يوجد النخيل بكثرة في الواحات الصحراوية[9].

إن شعب الطوارق لا يمثل قبيلة واحدة، بل ينقسمون إلى عدة قبائل ترتبط جميعاً بأربعة فروع كبرى.

طوارق الهقار وهرار، ويوجدون بجبل هقار.

طوارق أزقر وأيفوغا، ويقطنون بجبل غات ونواحيها.

طوارق كلوي ومايديرن ويقيمون بجبل سكمارة.

طوارق عوليمدن، ويسكنون شرقي تمبكتو[10].

ولقد ذكرت لنا بعض القبائل الحالية المتفرعة عن القبائل الكبرى منها، إيمقرغسن، ايفلالن، ايجراجيون، كلتوبرنت، كللي أبادا، ايهقارن (أوراغن)، ايمغاد، لمتونة.

وقد كان في السابق لكل قبيلة وطنها الخاص ومجالها الحيوي الذي تعيش فيه، ومن هذه القبائل لمطة وجزولة ولمتونة وجدالة ومسوفة[11]، أما حالياً فلا يوجد هذا التخصص الجغرافي، أي كل قبيلة في مجال أو منطقة معينة، فقد حدث الاندماج في مكان واحد، أي منطقة جغرافية موحدة، وحتى وإن لم يكن اندماجاً كلياً فهو جزئي، أي أن كل عائلة تحاول البقاء ضمن نطاق قبيلتها التي تنتمي إليها، ولكن بحكم التقدم والتمدن ووجود المدارس والمعاهد والمستشفيات وكل المرافق العامة، أصبح الاندماج والاختلاط شيئاً حتمياً غير مخطط له.

وبصورة عامة فقد كانت قبائل الطوارق تمثل حلقة الاتصال بين المغرب بثقافته وحضارته، وبين المحيط الزنجي بحضارته وشعوبه، والذي يمتد شرقاً حتى بحيرة تشاد[12].

وشعب الطوارق هم شعب مسلم يؤمنون بالله ورسوله، وينمتي بعضهم إلى الطريقة السنوسية، وبعضهم الآخر إلى طريقة مولاي الطيب، وعندهم اعتبار كبير للعلماء ولسلالة الرسول، وخاصة من كان منهم معتنقاً للطريقة السنوسية، وقديما كانوا يتاجرون بالعبيد الوثنيين، أما من كان له دين سماوي فيعتبرون إن الاتجار به حرام لأنه يؤمن بالله الواحد، والمتاجرة في الوثنيين يعتبرونه حقاً قانونياً، ولكن منذ سنوات (سبعينات وثمانينات القرن التاسع عشر الميلادي) لم تعد توجد هذه التفرقة، وأصبح الطوارق يعاملون كل القبائل السودانية نفس المعاملة[13].

إسلام الطوارق

في إطار الفتوحات الإسلامية للدولة العربية الإسلامية، في عهد الخلفاء الراشدين، وصل عقبة بن نافع الفهري في ولايته الثانية (62-64هـ) إلى بعض مواطن الطوارق، فقد توغل في بلاد السوس في أقصى المغرب، وخاض معارك عنيفة مع قبائل البربر هناك[14]، وتذهب بعض الروايات إلى أنه وصل في هذا الزحف إلى مدينة نول، على ساحل المحيط في أقصى الغرب، أي أنه توغل في موطن الطوارق، ولم يذعن هؤلاء للإسلام منذ اللحظة الأولى، فقد قاومت قبيلة مسوفة ولمتونة دفاعاً عن كيانهما، وقد هزم عقبة المسوفيين وواصل الزحف حتى مدينة تارو ادنت، فأذعنت هذه القبائل ولم تعد للمقاومة، كما قام عقبة بدوره ببناء مسجد في مدينة ماسة، ويفترض حسن أحمد أن بناء هذا المسجد يدل على أن تحولاً للإسلام ظهر عند الملثمين[15].

هذا المسجد يمثل إسلام فئة قليلة معدودة، وخاصة بعد ما بدر منهم من ارتداد.

وجاء موسى بن نصير بعد عقبة سالكاً نفس الطريق الذي سلكه عقبة، وأدرك موطن الطوارق وردهم إلى الإسلام وأنشأ مسجداً في مدينة أغمات. ومنذ تلك الأثناء أخذ المسلمون الفاتحون على ارتياد هذه المناطق - فقد أقيمت الآبار التي تصل بين واحات أفريقية وبين أودغست بصحراء المغرب العربي – وبالتالي الإمعان في نشر الإسلام في أقاصي أوطان الطوارق[16].

ومن هنا جاء دور التجار العرب المسلمين في نشر الإسلام وتعاليمه، على الأقل من حيث الملاحظة لسلوكهم وأفعالهم (وخاصة أمانتهم وصدقهم في التجارة، وانتظامهم في الطهارة والعبادة) من قبل البربر والأفارقة، فقد استطاع هؤلاء (التجار) أن يتنقّلوا في ديار الطوارق وبلاد السودان، وأصبحت قوافلهم أكثر جرأة على ارتياد هذه الطرق[17].

وبعد قيام دولة الأدارسة العلويين في المغرب الأقصى، استأنفوا الجهاد لنشر الإسلام، وبسطوا النفوذ على البلاد كلها، وكذلك على النواحي الشمالية من ديار الطوارق (الملثمين)، وتخطى نفوذهم جبال درن، وأنتشر في أقليم الواحات، وبذلك يمكن القول إن إسلام الطوارق الملثمين الذي بدأ في عهد عقبة قد تأكد في عهد الأدارسة خصوصاً في القرن الثالث الهجري[18].

ورأي آخر يعتقد أنه على الرغم من انتشار الإسلام بينهم، فقد ظل إسلامهم ضعيفاً وكلمتهم متفرقة، وذلك حتى أوائل القرن الخامس الهجري، عندما حدثت الانتفاضة الدينية الإصلاحية التي وحدت صفوفهم على أسس دينية وأخلاقية صحيحة[19].

ورأي آخر يفترض أن انتشار الإسلام بين البربر الذين كانوا على احتكاك بالشعوب الأفريقية إلى الجنوب منهم بدأ في الفترة ما بين عامي 117 - 122 هـ / 735 - 740م، إلا أن هذا يمثل البداية فقط، لأن بربر المسوفة كانوا يقاومون الإسلام خلال العقد نفسه، لذلك فإن عملية التحول إلى الإسلام تمت بدون استعجال أو ضغوط، وذلك مما دعى ابن بطوطة في القرن 8 هـ - 14 م أن يشير إلى أن جوانب عدة من التقاليد الاجتماعية عند شعوب الصحراء لم يصلها التغيير، مما أذهله بالغ الذهول كرجل مسلم، فلم يجر الالتزام بالشريعة الإسلامية التزاما جازماً صارماً، وخاصة ما كان عليه الحال

في بعض قواعد الزواج، ومبادئ الحياة عامة[20].

وفي هذه الإفادة الأخيرة يتفق محمد بن عثمان الحشائشي[21] مع ابن بطوطة (وهو في هذا يعد مصدراً زار المنطقة وكتب عنها) إذ يقول إنه على الرغم من انتشار الإسلام بين الطوارق، فأنهم لا يعرفون المبادئ الحقيقية للإسلام، إذ لا يدركون مفهوم الواجبات الدينية، ولا المدنية، وقد ارتكبوا تعديات مفرطة تجاه جيرانهم، هذا عدا عن قيامهم بالمتاجرة بالأفارقة سواء كانوا مسلمين أم وثنيين) التي ليس لها أساس ديني.

إن الطوارق بحكم البيئة الموجودين بها، أي قرب القبائل الأفريقية الزنجية السوداء، وبحكم انتشار الإسلام بينهم، بداية، فقد كان للشعوب السوداء بعض التأثير الثقافي على الطوارق، ثم أنه لابد وقد أوجدوا طريقاً للملائمة بين ثقافتهم القديمة المختلطة بثقافة الشعوب الأفريقية الأخرى، وبين الثقافة العربية الإسلامية الجديدة الوافدة[22].

ومن ناحية أخرى أخذت تظهر تيارات صوفية[23] بعدما لقيته من معارضة، وكانت مساعيهم تتمحور حول التعبير عن أحاسيسها الدينية عن طريق التنسك والزهد في الحياة الدنيا، وكان المغرب هو أول بلد احتضن هؤلاء الصوفيين، وكان ذلك في القرن 5 هـ - 11م[24] وقد كان للفرق الصوفية (القادرية - التجانية – السنوسية) التي رافقت الفتوحات الإسلامية، دور مباشر في نشر الإسلام، فكان دورهم يقوم على الإرشاد ونشر التعاليم الإسلامية[25] ومما لاشك فيه أنه كان للصوفية دور كبير في تكوين الفكر الإسلامي لدى العديد من الشعوب الأفريقية التي انتشرت فيها.

فمن الأفكار التي تكون إحدى أهم قواعد المذهب الصوفي مسألة الأولياء، وفكرة الولاية تمثل النظرية الثانية الكبرى لدى الصوفية بعد التوكل، ويُرجح أن فكرة الولاية ذات أصل نصراني، فنتيجة للفتوحات الإسلامية حصل الاتصال المباشر مع الكنيسة المسيحية، أدى إلى تسرب أفكار وقواعد متنوعة إلى الصوفية منها الاهتمام بالأبطال المتدينين والكلام في حب الله، هذا عند المسيحيين، أما عند الصوفية فقد تطور معناها وأصبح يدل على الشخص الذي يواليه الله وينصره وهي فكرة صوفية أدخلها الصوفيون للإسلام، فأصبحت وكأنها جزءاً من العقيدة الإسلامية[26].

زيارة أضرحة الأولياء[27]

بما أن زيارة أضرحة الأولياء تعكس صورة من صور الفكر الديني لدى بعض الشعوب، لذا نود الحديث عن مكونات هذا الفكر (الديني)، حيث يرتبط كل مكون منها بموضوع البحث ويوضحه.

تتمثل عناصر الفكر الديني في المعتقد، والطقس، والأسطورة.

فالمعتقد يمثل حاجة سيكولوجية للإنسان التائه في هذا الكون ويكون بالتالي صورة ذهنية أو تفسير عقلي -منطقي لمحاولة إشباع القلق النفسي – العالم المقدسات[28].

تولد الخبرة الدينية المباشرة حالة انفعالية قد تصل في شدتها حدا يستدعي القيام بسلوك ما، من أجل إعادة التوازن إلى النفس والجسد الذين غيرت التجربة من حالتهما الاعتيادية، هذا السلوك هو ما يطلق عليه الطقس، ويتم ربط الطقس بالمعتقد بدل ارتباطه بالخبرة الدينية المباشرة. أما الأسطورة فهي تنشأ عن المعتقد الديني، وتكون امتداداً طبيعياً له وهي تعمل على توضيحه وإثراءه، وتثبيته في صيغة تساعد على حفظه وتداوله بين الأجيال، كما أنها تزوده بذلك الجانب الخيالي الذي يربطه بالعواطف والانفعالات الإنسانية[29].

اعتقد سكان أفريقيا في ما وراء الصحراء في وجود خالق قوي من الصعوبة بمكان الوصول إليه إلا عن طريق واسطة وهي روح الأجداد، والكهنة والسحرة، ويعتبر الوثنيون[30] أن الموت ليس معناه فناء الميت، فالروح بعد الموت تنتقل إلى مكان قريب من المكان الذي عاش فيه صاحبها، فلا تنقطع العلاقة مع أقربائه الأحياء، ويعتقدون أن للأرواح القدرة على تحقيق الخير والشر، لهذا تقدم لها الأضاحي والقرابين في المناسبات تقرباً منها و لكسب ودها، وتفادى غضبها، وهم لا ينظفون صحونهم من الطعام اعتقاداً منهم بأن أرواح أجدادهم تأتي وتأكل بقاياه، وبلغ اعتقادهم أقصاه إلى دعوة هذه الأرواح الحضور أعراسهم .

من ذلك نلاحظ أن الأحياء كانوا على يقين بأن أباءهم وأجدادهم على مقربة منهم، فجعلوهم وسطاء لدى القوى الخفية (تختلف هذه القوى/ القوة لدى المعتقدين بها من البدائي إلى المؤمن بديانة وضعية، إلى المؤمن بالديانة السماوية) في تحقيق متطلباته[31].

من بين المؤمنين بقوة الأرواح ووساطتها مع القوى الخفية أو العليا شعب الطوارق، منهم يؤمنون بالأولياء الصالحين (ينقسم هذا الإيمان إلى الإيمان بالأحياء منهم، والإيمان بالأموات ، يؤمن الطوارق بالقسمين، إلا أن القسم الأول ليس موضوع الدراسة) وتمثل هذا الإيمان في شكله المادي بأن جعلوا لقبر الولي شكلاً مميزاً وبنوا حوله بناءً صغيراً خالياً من الألوان، ووصل هذا الإيمان ذروته عند قيام هؤلاء الطوارق بزيارة لأضرحة أوليائهم، تبركاً، وتحقيقاً للحاجات والمطالب ودفعاً للهموم والمصائب، فتَرد عندهم أسماء الأولياء مثل (عبد السلام - مولاي الطيب - المهدي - الشريف - السنوسي - عبد القادر).

كانت نساء الطوارق من اللائي يقمن بزيارة الأضرحة عند الحاجة (يتساوى الرجال والنساء في الماضي في زيارة الأضرحة في الأعياد والمناسبات، ولكن اقتصر ذلك على الرجال دون النساء حديثاً) فمثلاً نجد الواحدة منهن إذا تأخر زوجها ترتدي أحلى الملابس وتزين نصف وجهها وتذهب إلى ضريح الولي وتنام بجانبه، ليخبرها عن طريق الحلم أين زوجها ومتى سوف يأتي.

إحدى الحاضرات تحدثنا أنها جربت بنفسها (حاضراً) الذهاب إلى ضريح الشيخ بعد تزينها هي وصاحبتها، في الصباح الباكر، ونامت بجانب القبر وأخبرها الولي أن زوجها سوف يأتي قريباً، وفعلاً أتى بعد وقت قريب. أخرى تكمل الحديث قائلة، إذا أرتاح لك سوف يجيبك إلى سؤالك، وإذا لم يرتح فلن يرد عليك، وأحياناً يُسمع الولي السائلة أصوات خطوات زوجها المسافر، وخطوات الجمال، وبعد ذلك تعطي صدقة باسم هذا الشيخ للناس.

مما تجدر ملاحظته أن هناك تقبلاً واستعداداً لفعل هذا الشيء ثانية عند معظم النساء المسنات في الوقت الحاضر.

تعكس أفعال نساء الطوارق طبيعة شعب الطوارق الرعوي المتنقل الذين كانوا دائماً ما يرحلون طلباً للمراعي وموارد المياه وجلباً للعيش، وكثيراً ما يتأخرون من ثلاثة إلى سبعة أيام (أحياناً أكثر)، مما يؤدي إلى قلق وخوف أهل بيته عليه.

أما عن ذهابهن إلى ضريح الولي فيمثل إيماناً منهن بقدرة هذا الولي، واعتباره من أولياء الله الصالحين الذين يعلمون الغيب، والذين تحصل على أيديهم الكرامات (أعمال خارقة للعادة) أحياء أم أموات، أما عن تزيينها نصف وجهها، وكأنها تقول له أن جمالي لن يكتمل وسيظل ناقصاً، مالم يأتي زوجي ويكون بجانبي أطمئن عليه.

إن مبدأ الراحة التي ترويه إحداهن ربما مرتبط بسيرة السائلة نفسها وينعكس بالتالي على تقبل الولي لها أم لا.

نلاحظ أن عادة النوم عند القبور عموماً واستطلاع الغيب عن طريقها قديمة جداً، فنجد أن المؤرخ الإغريقي المشهور هيرودتس الذي عاش في القرن الخامس ق.م، يتطرق إليها عند حديثه عن قبيلة النسامونيس (إحدى القبائل الليبية القديمة التي سكنت ليبيا) حيث يقول "ويستطلعون الغيب بأن يذهبوا إلى قبور أسلافهم ويؤدون صلوات ثم ينامون، وما يشاهده المرء من أحلام في النوم يعده وحياً"[32].

وأحياناً لا يرتبط الاعتقاد بالأولياء بضرورة زيارة أضرحتهم، فنجد مثلاً أن المرأة عند نساء الطوارق إذا تأخر زوجها، تقوم ببعض الطقوس الرمزية، لا ندري ماذا تعني، وهي بأن تشرب حليب، وتبقه من فمها وتضع في يدها رملة سوداء مع بعض القصب والماء، وتكون منه عجيناً تقسمه إلى سبع كرات وترمي كل واحدة في جهة، وكلما ترمي واحدة تحني رأسها إلى الأرض وتغطيه بلباسها، ليأتيها الخبر، ونرى أن ذلك لا يُقام عند قبر الضريح، ولكنها في الوقت نفسه تنتظر الخبر من الولي، وكأن روحه تتطاير في كل مكان منتظرة من يدعوها، للاستجابة له.

طريقة أخرى لمجيء الزوج الذي طال غيابه، هي قيام الزوجة بتزيين قرن الكبش، ثم تصعد فوق الجبل وتنادي فيه على زوجها ثلاث مرات ثم تضع القرن على الجبل وتذهب، وبعد ثلاث أيام (تقول الرواية) يأتي زوجها. لا ندري ما هي الحكمة من اختيار قرن الكبش والقيام بهذا العمل هل كان ذلك لصفته العملية في تكبير الصوت، أو لصفته الرمزية في كونه قرن كبش، والذي يمثل لدى الليبيين القدماء حيواناً مقدساً إلى جانب بعض الحيوانات الأخرى[33].

كان الطوارق ولازالوا يقدسون جبلاً يدعى جبل تازوك، أما المنطقة التي بها الجبل فتسمى اللالة رحمة، (يستخدم هذا المصطلح "اللالة" لمن كان لها جاه وسلطان وعزوة وأحياناً يستخدم لمن كانت لها سلطة معنوية)، وهم يعتقدون أن هناك امرأة اسمها لالة رحمة وعندها بركات دفنت هناك، ويعتبرون أن لهذا الجبل بركات لطلب الحاجات (أي الاستجابة إليها وتحقيقها).

من القصتين الأخيرتين، وغيرهما نرى الطابع الوثني يظهر بشكل بسيط وقوي في الوقت نفسه، فقد أضفوا (المعتقدين) الروح على قرن الكبش، نرى ذلك من خلال استخدامه هو بالذات دون غيره في عملية إحضار الزوج، غير ذلك وضع القرن والذهاب عنه، وكأنه سوف يكمل المهمة المتبقية بنفسه، أو بعد عودة الروح إليه بعد ذهاب الأشخاص.

أما في القصة الثانية فقد كان تقديسهم للمكان يقتصر على كون اللالة رحمة مدفونة به ومع تكرار زيارتهم إليه، نسوا قصة اللالة رحمة وأخذوا يقدسون الجبل في حد ذاته، وهذا ما تمت ملاحظته، فهن لا يعرفن شيئاً عنها، وأخريات لا يذكرنها أصلاً، ويتكرر ترديدهن: "هذا الجبل له بركة".

عدا هذا فقد تميز دعائهم للولي: (يا سيدي عبد السلام نجحني، يا سيدي ومولاي الطيب أرزقني أطفالاً وأرزقني مالاً)، وغيره، على الرغم من أنهم يخاطبون أمواتاً فهم ينتظرون الإجابة وتحقيق الأمنيات وهم لا يتطرقون إلى ذكر الله أو التوجه إليه بالدعاء.

أصل الولي:

إن معظم القديسين والأولياء كانوا وهم أحياء من الطبقة الرفيعة أو كانوا من أهل الصفوة في المجتمع (مثل آل البيت وبحكم أوضاعهم الاجتماعية التي عاشوها استمدوا مكانتهم عند مريديهم، هذا فضلاً عن الصعاب التي واجهوها في الحياة وتغلبهم عليها أو استشهادهم دونها[34]، أو أن هذه المكانة يكتسبها الولي نتيجة اعتقاد الناس في قربه من الله لكثرة طاعته وإخلاصه، فيكون الله قريباً منه برحمته وفضله وإحسانه، فتحدث له الولاية وتكون مصحوبة بالأعمال الخارقة (الكرامات)[35].

ومن ناحية أخرى ليس هناك شرط عقلاني أو مواصفات خاصة يجب توافرها في صاحب الكرامة (الولي)، فقد يكون رجلاً عادياً متديناً عاقلاً أو أبله، أو حتى قاطع طريق، فليس بالضرورة أن يكون الأولياء في حياتهم أخياراً، فما المقياس إذا؟ ذهنية المعتقدين به[36]، أيضاً قد يكون الولي رجلاً فقيراً أو مجنوناً، فالجنون هو المؤهل المعتاد للحصول على هذه المكانة المرتفعة من الولاية بين المسلمين في بعض الدول، فالأشخاص المصابون بالجنون ينظر إليهم على أنهم أحباب الله[37].

أما عند الطوارق فالأمر يختلف تماماً، يقال إنه شيخ صالح، وكان في حياته يعالج الناس ويساعدهم، هذا إذا عُرف أصله أما إذا لم يعرف فيقال إنه ولي بسبب رؤيتهم لضوء سماوي، وأشياء مضيئة حول قبره، وأحياناً قد لا يُعرف هل يوجد رجل مدفون أم لا، بل الاستفهام وحده هو الذي أهّله للولاية، هذا إن وجد شخص مدفون.

تخصص الأولياء:

إن فكرة تخصص الأولياء تعكس صورة من صور إسقاط واقع وطبيعة الحياة عند الإنسان على عالم الأموات، وإيجاد عالم مماثل له، مما يظهر ربما قصوراً في ذهنية المعتقد، ومن ناحية أخرى يعكس تنوع الاحتياجات لدى الأفراد عموماً ورغبتهم في التأكد من أن قضاء حاجاتهم إنما يكون على يد ولي متخصص[38]، ويبدو أن خدم أضرحة الأولياء كان لهم دور في رواج هذه الفكرة، وذلك لإيجاد نوع من الانتظام والديمقراطية بين الأضرحة الأخرى (أي ما يخص الفوائد الاقتصادية بين خدم الأضرحة).

وفي أغلب الأحيان فقد يكون للصدفة دور أساسي في تحديد التخصص للولي، كأن يشفي مريض من مرض العيون مثلاً بمحض الصدفة بعد زيارته لضريح معين، فيشاع أن هذا كان بفضل تخصص الولي بهذا المرض، كذلك فإن كرامة الولي التي حددت له ولايته، تحدد اختصاصه في ذهن معتقديه[39].

أما عند الطوارق فلا يوجد هذا التخصص (أي كل ولي يختص بعلاج داء ما أو بقضاء حاجة ما) بل أن كل ولي يصلح لكل شيء، بل يظهر التخصص في أن لكل جماعة ولي معين، وفي الجانب الآخر يحترمون أولياء الجماعات الأخرى، وأحياناً أخرى تعني هي بالغرض إذا لزم الأمر.

وفيما يخص الأدعية فلا يظهر الكثير من التعقيد والتكليف فيها، فأدعيتهم بسيطة واضحة ترمي إلى الغرض مباشرة، وهذا ربما راجع لكونها تختص بها نساء كبار السن واللائي يفتقرن (بعض الشيء) إلى العلم، كذلك عدم وجود من يروج لهذه الأدعية، فأدعيتهم ارتجالية وليست معدة مسبقاً تعبر عن شخصية الداعي مباشرة.

الطقوس المصاحبة لزيارة الأضرحة:-

لم تكتف الجماهير العريضة بزيارة قبور الأولياء ولا بالطلب إليهم بقضاء الحاجات، وذلك عن طريق التوسل والأدعية، بل كانت تقام إلى جانب ذلك عدداً من الطقوس التي تعود في جوهرها إلى أصول وثنية[40].

تنقسم الطقوس على حسب ما تقام إلى الطقوس المصاحبة للمطالب الخاصة الفردية، والطقوس المصاحبة للاحتفال العامة، كالأعياد، والمناسبات، وموالد الأولياء، والشيوخ. الحقيقة أنه عند الطوارق في الوقت الحالي أو في الماضي القريب لا تظهر هذه الصورة بشكل واضح إلا قليلاً، فتظهر عند الزيارات طلباً للحاجة، وخاصة في الأمثلة التي ذُكرت سابقاً، أما في الاحتفال العامة أي في الأعياد وغيرها فإنه يقتصر ذلك على الدوران حول ضريح الولي، وقراءة

الفاتحة وبعض آيات القرآن الكريم، وبعد الانتهاء من ذلك توزع الصدقات بين الناس.

أسباب الاعتقاد بالأولياء وكُراماتهم: -

إن السبب المباشر لهذا الاعتقاد هو الشعور بالعجز لدى الإنسان لانعدام وسائل الصراع لديه بسبب الفقر والجهل والكبت والتقاليد[41].

كذلك فإن حدوث بعض الكرامات في حياة بعض الأولياء (وهي الجائزة أحياناً) هو كفيل بزيادة أو بتأكيد التصديق، والذي يستمر حتى الممات (وهو غير جائز بالنسبة للكرامات وهم أموات)، وأحيانا تكون هذه الكرامات صدفة محضة، أو تكون نتيجة علمية عقلانية أكثر من كونها نتيجة لأفعال صاحب الضريح، مما لا ينتبه إليه الحاضرون قصداً أو بدون قصد.

إن الفقراء هم الطبقة الأكثر تصديقاً للأولياء وكراماتهم، أما طبقة الأغنياء فتمثل مكانتها وأموالها رادعاً، أو صمام أمان يحميها من التصديق إلى درجة معينة، فأحياناً لا تستطيع الثروة والمكانة السياسية والاقتصادية تحقيق أهداف أصحابها، مثل الحصول على ولد ذكر أو الحصول على زوج، مثل ذلك وغيره يجعلهم ينخرطوا إلى جانب المصدقين بالأولياء وكراماتهم. ولا يقتصر التصديق والاعتقاد على هؤلاء فحسب، بل يشمل قطاعات عريضة من المتعلمين والعاجزين عن اتخاذ موقف حاسم من الخرافة.

فعلى الرغم من ترك عادة زيارة الأضرحة عند الطوارق حديثاً، حيث قيل لنا أنها تُركت بسبب أعمال السحر التي أصبحت تُقام هناك، هذا عدا عن القيام بتقطيع أحد أعضاء الميت. ولكن لا بد أنه كان لزيادة الوعي الديني والثقافي دور مباشر أو غير مباشر لترك هذه العادة (أو هذا المعتقد).

على الرغم من ذلك فأنه قد ظهر الاعتقاد بالأولياء وكراماتهم في شكل آخر، ألا وهو "التسبيحة" وهي دعاء معين يختص بولي / شيخ معين يمنحه هذا الولي الشيخ في حياته للرجل والمرأة عند الزواج وبعد مماته يبدآن في هذه التسبيحة حتى الممات، والغريب في الأمر أن هذه التسبيحة لا يقولها أحداً منهم أبداً، ويُلف بها طابع الغموض، وقد تحايلنا على بعضهن (بعض نساء الطوارق) لإخبارنا، وأقسمنا لهن بعدم البوح بها، ولكن دون جدوى فهن متحفظات عليها جداً، وذلك اعتقاداً منهن بأنه سوف يصيبهن مكروه وعلى من تنساها أن تبخر، أما فائدتها فيعتقدن أنها لتخفيف الذنوب وللشفاعة بين الإنسان وربه وحاجزاً بينه وبين أهل السوء، وهي حفيظة في الدنيا والآخرة.

لقد انتقل الاعتقاد بقدرة الأولياء من المعنى المادي (زيارة الأضرحة) إلى المعنى المجرد (التسبيحة وفوائدها) هذا في حين أنه يدل على التطور في العقل قياساً بما قبله، إلا أنه في الوقت نفسه يدل على تأخره بسبب ما تقدم له من إيضاحات في هذه المسائل من القرآن والسنة، ولكن يبقى السؤال هل وصل الإسلام إلى هذه المنطقة بالطريقة الصحيحة؟ أم أن هؤلاء الطوارق) أبوا أن يأخذوا بهذه الطريقة (الصحيحة) ؟، أم أنهم حاولوا أن يمزجوا بين مبادئ الإسلام من جهة، وبين معتقداتهم وتقاليدهم التي تعود إلى أصول أفريقية (إلى حد ما) من جهة أخرى؟ فظهرت أفكارهم كما هي الآن (أي زمن القيام بزيارة الأضرحة).

الشريعة الإسلامية وزيارة أضرحة الأولياء: -

لقد حدثت تغيرات في معاني ومصطلحات القرآن الكريم على مر العصور والأزمان، فكثيراً ما يفسر المفسرون كلمات القرآن بالاصطلاحات التي حدثت في الملة بعد القرون الثلاثة الأولى من ذلك لفظ "الولي" فمعناه في القرآن (غالباً) الناصر والموالي، وأولياء الله أنصار دينه من أهل الإيمان والتقوى، وقد تغير بعد ذلك المعنى وأصبح يعني أو يدل على صنف من الناس تظهر على أيديهم الخوارق ويتصرفون في الكون بما وراء الأسباب. ولم يكن يعرف الصحابة هذا المعنى[42].

وبموجب المعنى الصحيح الذي تقدم للولي، تظهر في آيات القرآن الكريم بعض أوجه للولاية[43].

ولاية الله وحده للعباد عامة، لا ولي سواه، والمراد أنه هو المتولي لأمور العباد بما خلق لهم من المنافع من الأعضاء، والقوى التي تمكنهم من الانتفاع بها، وبما لهم من السنن، ومهد لهم من الأسباب. وهذه الولاية هي الولاية العامة المطلقة. ولاية الله للمؤمنين خاصة، وهي تمثل عنايته بهم وإلهامه وتوفيقه لهم بما فيه الخير والصلاح الروحي والجسدي، بما اختاروا لأنفسهم من الإيمان به وبما جاءت به رسله، قال تعالى "الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور". البقرة (257).

ولاية المؤمنين لله، وقد عبر الله عنها بالأيمان والتقوى، فهم بالأيمان بولايته لهم يتولونه، أي يعتقدون أنه هو المتولي لأمورهم وحده، وهم في استفادتهم لهبات الله لهم، ولمنافع الكون واتقاء رضاه، يعتبرون أن ذلك من فضله عليهم وتوليه لأمورهم، وكذلك في توجههم إليه وحده دون غيره، عند ضعفهم وحاجتهم مع تعاونهم وتناصرهم. قال تعالى "إلا أن أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون" يونس (62).

ولاية المؤمنين بعضهم لبعض، وهي تدل على تعاون المؤمنين وتناصرهم في الأمور المشتركة مع استقامتهم على الأعمال الصالحة الخاصة، ثم القيام بالأعمال الصالحة العامة، قال تعالى: "يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله" التوبة (71).

ولا تعني ولاية المؤمن إلا أن يكون عوناً له ونصيراً في الحق، قال تعالى: "إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين أووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض" الأنفال (72) "والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض" التوبة (71)، ومن تجاوز ذلك، واتخذ ولياً أو أولياء يعتقد أنهم يتولون شيئاً من أمورهم فيما عدا التعاون والتناصر فقد أشرك، إذ أعتدى على ولاية الله الخاصة التي لا يشاركه فيها أحد لا بالتوسط عنده ولا بالاستقلال دونه. وهذا المعنى الأخير هو عين ولاية الكافرين للشيطان أو للطاغوت[44]. قال تعالى: "والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى" الزمر (3)، وقال تعالى أيضاً " أم أتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون (43) قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السماوات والأرض ثم إليه ترجعون". الزمر (44-43).

هذا فيما يخص الولاية، والتي يظهر من الحديث عنها، إن زائري أضرحة الأولياء والمعتقدين بنفعها وبرها، هم مشركين لأنهم اعتدوا على ولاية الله.

ومن ناحية أخرى يظهر بطلان هذا المعتقد من آياته عز وجل، فقد نبه السائلين بسؤاله وحده دون وسيط، وهذا يدل على مكانة السائل عند الله، وعلى تواضع الله أمام خلقه المتوجهين له بالسؤال والعبادة، واهتمامه بعباده، قال تعالى: " وإذا سألك عبادي عني فأني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون" البقرة (168).

الحقيقة أن شرح الآية طويل وسوف نقتصر على ماله علاقة بموضوع الورقة. يروى في سبب نزول الآية إن إعرابياً جاء إلى النبي ﷺ، وقال له أقريب ربنا فتناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فسكت النبي ﷺ فأنزل الله الآية. هذا السؤال ليس بغريب عن الأعراب الذين اعتادوا أن يتخذوا وسائل بينهم وبين إلههم يتقربون

بها إلى الله خالق السماوات والأرض، هذه الوسائل أو الوسائط كانت إما أشخاصاً، أو أشباه أشخاص كالتماثيل والأصنام، فلم يهتدوا بأنفسهم لمعرفة ذلك الإله الواحد العظيم، بأنه لا يتقيد بشيء حتى هداهم إليه القرآن بآياته البينات، فكانوا أهل التوحيد الخالص.

وهذه الآية عموماً تمثل خطاباً موجه للرسول بان يذكر المؤمنين كافة ويعلمهم ما يراعونه في هذه العبادة، وغيرها من الطاعة والاخلاص والتوجه إليه وحده بالدعاء، الذي يعيدهم للهدى والرشاد، وقد جعلت بأسلوب الفتوى على تقدير السؤال لتنبيه الأذهان، والمراد أن يؤمنوا بأن الله تعالى قريب منهم وليس بينه وبينهم حاجة ولا ولي ولا شفيع يبلغه دعائهم وعبادتهم، أو يتوسط لهم عنده، أو يشاركه في اجابتهم أو إثباتهم، فليتوجهوا إليه وحده، حنفاء مخلصين له الدين.

وأما معنى قرب الله تعالى، فإن القرب بالعلم، بمعنى ان علمه محيط بكل شئ، فهو يسمع أقوال العباد ويرى اعمالهم، وعلى كل حال لازم القرب مقصود، وهو عدم الحاجة إلى رفع الصوت، ولا إلى الوساطة، في الدعاء وطلب الحاجات كما كان عليه المشركون في التوسل بالشفعاء والوسطاء إلى الله تعالى، فكأن الله قال: فأخبرهم بأني قريب منهم وأني أقرب إليهم من حبل الوريد[45]، قال تعالى: "ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد" ق (16).

"أجيب دعوة الداع " منهم بنفسي ومن غير وساطة " إذا دعان " وتوجه إلى وحدي في طلب حاجته، أي يجب أن يدعى وحده بدون وساطة لأنه هو الذي خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه، وهو الذي يجيب دعوته وحده بدون وساطة تعينه أو تساعده أو تنوب عنه في الإجابة وقضاء الحاجة أو تؤثر في إرادته، وهذه الآية هي نفسها في حد ذاتها دليل على انه لا يجيب الدعاء إلا الله، فيجب ألا يُدَعى سواه قال تعالى "وإن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً" الجن (18) فعسى أن يهتدي بهذا الموسومون بسمة الإيمان الذين يدعون عند الضيق غير الرحمن ويتوجهون إلى القبور: يا شيخ فلان يا ولي فلان، ويزين لهم هذا الشرك مدّعي العلم والعرفان بأن الكرامات ثابتة للأموات كالأحياء ولكن الله تعالى يقول لهم "بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء" الأنعام (41).

هذا من حيث آيات القرآن الكريم، أما من حيث أحاديث الرسول والتي نود إيرادها لزيادة التأكيد، ولو أن الرد بالقرآن أبلغ تأكيداً وأقوى أثراً، إلا أننا نريد أن يكون الموضوع مستوفي من جميع النواحي.

"نهى رسول الله ﷺ أن تجصص القبور وأن يكتب عليها، وأن يبنى عليها وأن توطأ"[46].

والجص هو ما تُطلى به البيوت من الكلس[47]، ويستخدم أيضاً للبناء[48].

والحديث يدل على التحريم، فقد جاء النهي عن البناء والتجصيص لمنع التنزيه لصاحب القبر[49].

قال رسول الله ﷺ "أن لا تدع قبراً مشرفاً إلا سويته، ولا تمثالاً إلا طمسته"[50].

في هذا الحديث يتضح الأمر بأن لا يُرفع القبر رفعاً كثيراً، حتى لا يظهر الفرق بين من كان فاضلاً ومن كان غير فاضل، ويظهر منه (الحديث) إن رفع القبور زيادة عن القدر المأذون فيه محرّم، والقول بأنه غير محضور لوقوعه من السلف والخلف لا يصح، لأن غاية ما فيه أنهم سكتوا عن ذلك، والسكوت لا يكون دليلاً خاصة في الأمور الضنية، وتحريم رفع القبور ضني، ومن أمثلة رفع القبور الداخلة تحت الحديث، القبب والمشاهد المقامة على القبور وأيضاً اتخاذ القبور مساجد[51].

ويصيب الكاتب[52] كبد الحقيقة وينعكس واقعه على الواقع المعاش حالياً في معظم الأقطار العربية، إذ يقول "وكم قد سرى على تشييد أبنية القبور وتحسينها من مفاسد يبكي لها الإسلام، منها اعتقاد الجهلة لها كاعتقاد الكفار للأصنام وعَظُم ذلك فضنوا أنها قادرة على جلب النفع ودفع الضرر فجعلوها مقصداً لطلب الحوائج وملجأ لنجاح المطالب وسألوا منها ما يسأله العباد من ربهم، وشدوا إليها الرحال وتمسحوا بها واستغاثوا، وبالجملة أنهم لم يدعوا شيئاً مما كانت الجاهلية تفعله بالأصنام إلا فعلوه، فإن الله وإنا إليه راجعون ..."[53].

نتائج الدراسة

مما لا شك في أن مجتمع الطوارق في غات يمثل بيئة متكاملة تحتاج إلى العديد من الدراسات وخاصة في الجانب الديني والاجتماعي فلم يجر عليهم التطوروالتمدن الكامل كما هو الحال في باقي المدن.

لازالت هناك العديد من العادات الدينية والاجتماعية والقيم الإنسانية التي يتميز بها مجتمع الطوارق دون غيره، والتي لا تمت للدين الإسلامي بأي صلة، لذا فهي تحتاج لإلقاء الضوء عليها ودراستها قبل اندثارها أما موجة التغيير.

ولنا أن ننهى هذه الورقة بآية دالة قال تعالى " إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ" الأعراف (194).

شكروتقدير

أتقدم بالشكر الى الأخ إبراهيم بوشة مدير عام السياحة (سابقاً)، الذي زودنا بالمعلومات القيمة والشيقة عن جميع المواقع والأماكن، كم أشكر جميع العائلات التي استقبلتنا، وكل من صافحناه رجالاً ونساء.

الهوامش:

[1] نجمي رجب ضياف مدينة غات وتجارة القوافل الصحراوية خلال القرن 19 م، دار الكتب الوطنية بنغازى ، 1999م، ص 52،51

[2] المرجع نفسه، ص 53.

[3] فابريتشيوموري، تادرارت أكاكوس، الفن الصخري وثقافات الصحراء قبل التاريخ، ترجمة عمر الباروني، فؤاد الكعبازي، مركز دراسة جهاد الليبيين، طرابلس، 1988م، ص37.

[4] نجمى رجب ضياف، المرجع السابق، ص 56.

[5] محمد بن عثمان الحشائشي، الرحلة الصحراوية عبر أراضي طرابلس وبلاد الطوارق، مراجعة محمد المزروقي، الدار التونسية للنشر، تونس 1988م، ص 141.

[6] مجلة صدى المهرجان، تصدر عن اللجنة الاعلامية لمهرجان غات السياحي الدولي، الدورة العاشرة، ص 12.

[24] زكري دراماني، المرجع السابق، ص 118.

[25] حسن إبراهيم، المرجع السابق، ص 42.

[26] إبراهيم بدران، سلوى الخماس، دراسات في العقلية العربية - الخرافة - ط3، دار الحقيقة، بيروت، 1988م، ص 112،114.

[27] الوالي في اللغة هو الناصر، وقيل المتولي لأمور العالم والخلائق القائم بها، ومن أسمائه عز وجل، والوالي ضد العدو، وهو الصديق والنصير، والوالي هو التابع المحب. لسان العرب، ابن منظور، ج 15، ط3 ، دار صادر بيروت، 1994م، ص406 ،411.

[28] للمزيد من المعلومات راجع فراس السواح، دين الإنسان، ط3، منشورات علاء الدين، دمشق 1998م، ص 47،49.

[29] راجع المرجع نفسه، ص 53،59

[30] تعتبر الديانة الوثنية من بين أحدى أنواع الديانات المنتشرة في أفريقيا في ما وراء الصحراء، وقد انتشرت في المنطقة أكثر من غيرها، وهي تعني إضفاء النفس و الروح على الكائنات الغير بشرية، ويعتقد مريدوها إن الروح هي مبدأ الفكر و الحياة العضوية في أن واحد، الهادي المبروك الدالي، التاريخ الحضاري الأفريقي في ما وراء الصحراء من نهاية القرن الخامس عشر إلى بداية القرن الثامن عشر، 2000م، ص71.

[31] المرجع نفسه، ص 74.

[32] هيرودوت تاريخ هيرودوت، ترجمة محمد المبروك الذويب، الكتاب الرابع، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، 2003م، الفقرة 172.

[33] عبد اللطيف محمود البرغوثي، التاريخ الليبي منذ أقدم العصور حتى الفتح الإسلامي، دار صادر، بيروت، 1971م، ص 220.

[34] سيد عويس (الإبداع الثقافي على الطريقة المصرية، دراسة عن بعض القديسين والأولياء في مصر – القاهرة)، الفولكلور العربي بحوث و دراسات م1، اشراف محمد الجوهري، مركز البحوث والدراسات الاجتماعية 2000م، ص 254.

[35] سوزان السعيد يوسف، المعتقدات الشعبية حول الأضرحة اليهودية، دراسة عن مولد يعقوب أبي حصيرة بمحافظة الجيزة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 1997م، ص 146.

[36] إبراهيم بدران، المرجع السابق، ص 134 ص 224.

[37] وينيفورد بلاكمان، الناس في صعيد مصر، ترجمة أحمد محمود ط 2 ، الناشر عين للدراسات والبحوث الإنسانية و الاجتماعية، 2000م، ص 227.

[38] إبراهيم بدران المرجع السابق، ص 167.

[39] المرجع نفسه، الصفحة ذاتها.

[40] المرجع نفسه، ص 143.

[41] إبراهيم بدران، المرجع السابق، ص 149- 166.

[42] محمد رشيد رضا، المصدر السابق م 1، ص 21،22.

[43] المصدر نفسه، م 3، ص 43، 45.

[44] ويقدم المؤلف في ذلك شرحا آخر، راجع محمد رشيد رضا، المصدر السابق م 3، ص 45.

[45] محمد رشيد رضا، المصدر السابق م 2، ص 168.

[46] أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، حققه وصححه عبد الوهاب عبد اللطيف، ج3، ط3، دار الفكر، 1978م، ص 258.

[7] رولفس، رحلة عبر الصحراء، ترجمة عماد الدين غانم، مركز جهاد الليبين للدراسات التاريخية، طرابلس ، 1996م، ص 214، محمد بن عثمان الحشائشي، المصدر السابق ص 141.

[8] حسن أحمد محمود، الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، دار الفكر العربي، ط3، القاهرة 1986 م، ص 202

[9] محمد بن عثمان الحشائشي، المصدر السابق ص 145.

[10] المصدر نفسه، ص 139-140.

[11] حسن أحمد محمود المرجع السابق، ص 403، 204

[12] المرجع نفسه ص 202، 203.

[13] محمد بن عثمان الحشائشي، المصدر السابق، ص 134 ، ص 152

[14] أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، ص 41.

[15] حسن أحمد، المرجع السابق، ص 207.

[16] المرجع نفسه، ص 210

[17] المرجع نفسه، الصفحة ذاتها.

[18] المرجع نفسه، ص 210- 211.

[19] أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص 270

[20] زكري دراماني - أيسيفو (الإسلام كنظام اجتماعي في أفريقيا منذ القرن 7 م) تاريخ أفريقيا العام، م3، أفريقيا من القرن 7 إلى القرن 11م، إشراف.م. الفاسي بالإشتراك مع .أ. هاربك، ط 2 ، اليونسكو، 1997م، ص 123.

[21] المصدر السابق، ص 141، ص 155.

[22] فرنسوا دي ميديروس (شعوب السودان تنقل السكان، تاريخ أفريقيا العام، المرجع السابق، ص 143. حسن إبراهيم حسن، إنتشار الإسلام في القارة الأفريقية، ط3، مكتبة النهضة المصرية، 1984م، ص 51.

[23] ظهر التصوف في القرون الأولى للإسلام، وسمي أنصاره بالصوفية نسبة إلى زهدهم في لبس الصوف الخشن، كما فعل رهبان النصارى، كان غرضه في بادئ الأمر تهذيب الأخلاق، وترويض النفس بإعمال الدين، وجذبها إليه وجعله وجدان لها، وتعريفها بأسراره وحكمه بالتدريج، فكان بذلك التصوف في العصر الأول مختلطا مع الفقه، فكان إسلامياً بحثاً، وكان الزهد طوعاً للأوامر الإسلامية، وظل كذلك طوال العهد الأموي، فلما دخل في الإسلام الكثير من الأمم وأهل الديانات كاليهود والنصارى والفرس والهنود، وانتشرت الفلسفة اليونانية والأفلاطونية الحديثة، نهل التصوف الكثير من أفكارهم ومبادئهم، والصوفية هم قوم يعتمدون على قلوبهم، وعلى عواطفهم أو ذوقهم، و لا يصح أن نسألهم عن الحجة العقلية فيما يقولون، بل وقد تغمرهم العاطفة فيشطحون ويتكلمون بما لا يفهمون، انقلبت مقاصد الصوفية الحسنة في أذهان المسلمين الذين ابتعدوا عن المعنى الصحيح، ولم يبقى من رسومهم الظاهرة إلا أصوات، وحركات يسمونها ذكراً يتبرأ منها كل صوفي، وتعظيم قبور المشايخ تعظيماً دينياً مع الاعتقاد بأن لهم سلطة غيبية تعلو الأسباب التي ارتبطت بها المسببات بحكمة الله تعالى، بها يديرون الكون ويتصرفون فيه كما يشاءون، وأنهم قد تكفلوا بقضاء حاجة مريديهم والمستغيثين بهم أينما كانوا، و بذلك يكونوا قد اتخذوا أندادا من دون الله، وهو أمر مخالف للكتاب والسنة. أحمد أمين، ظهر الإسلام، ج 2، ط 5، دار الكتاب العربي، بيروت، 1969م، ص 58،59. محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار، ط2، م 2، ص 72،73.

6. حسن، حسن ابراهيم، 1984 م، انتشار الإسلام في القارة الأفريقية، ط3، مكتبة النهضة المصرية.
7. الدالي، الهادي المبروك، 2000م ، التاريخ الحضاري لأفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية القرن الخامس عشر إلى بداية القرن الثامن عشر.
8. دراماني، زكري- ايسيفو ، 1997 م، (الإسلام كنظام اجتماعي في افريقيا منذ القرن 7م)، تاريخ أفريقيا العام، م3، أفريقيا من القرن السابع إلى القرن الحادي عشر، اشراف.م . الفاسي، بالاشترك مع.أ. هربك، ط2، اليونسكو.
9. رضا، محمد رشيد، تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار، م 1، 2، 3، ط 2، دار المعرفة، بيروت.
10. الزبيدي، السيد محمد مرتضي، 1966م، تاج العروس، م 4، دار صادر، بيروت.
11. السواح، فراس، 1998م، دين الإنسان، ط 3، منشورات علاء الدين، دمشق.
12. الشوكاني، محمد بن علي بن محمد، نيل الأوطار شرح ملتقي الاخبار من أحاديث سيد الاخبار، ج4، مطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده، مصر.
13. الصنعاني، محمد بن اسماعيل الامير اليمني، سبل الإسلام شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الاحكام، راجعه محمد خليل هراس، ج 2.
14. ضياف، نجمي رجب، 1939م، مدينة غات وتجارة القوافل الصحراوية خلال القرن 19م، دار الكتب الوطنية، بنغازي.
15. العبادي، احمد مختار، في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية بيروت.
16. عويس، سيد، 2000م، (الإبداع الثقافية على الطريقة المصرية دراسة عن بعض القديسين والأولياء في مصر، القاهرة) الفولكلور العربي بحوث ودراسات، م1، اشراف محمد الجوهري، مركز البحوث والدراسات الاجتماعية.
17. محمود، حسن أحمد، 1986م، الإسلام والثقافة العربية في افريقيا، دار الفكر العربية، ط3، القاهرة.
18. مسعود، جبرن، 1979م، رائد الطالب، ط4، دار العلم للملايين.
19. ميديروس، فرنسوا ذي، 1997م، (شعوب السودان تنقل السكان)، تاريخ أفريقيا العام، م 3، افريقيا من القرن السابع إلى القرن الحادي عشر، اشراف. م. الفاسي، بالاشتراك مع. أ. هربك، ط2، اليونسكو.
20. يوسف، سوزان السعيد، 1997 م، المعتقدات الشعبية حول الأضرحة اليهودية، دارسة عن مولد يعقوب أبي حصيرة، محافظة الجيزة، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية.

ثالثاً المجلات

1. مجلة صدي المهرجان، تصدر عن اللجان الإعلامية لمهرجان غات السياحي الدولي الدورة العاشرة.

[47] جبران مسعود، رائد الطلاب، ط4، دار العلم للملايين، 1979م، ص 328.

[48] السيد محمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس، م4، دار صادر، بيروت، 1966م، ص 377.

[49] محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني، سبل السلام، شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الاحكام، ج 2، راجعه محمد خليل هراس، ص 147.

[50] ابن عيسى الترميدي، المصدر السابق، ص 256.

[51] محمد بن علي بن محمد الشوكاني، نيل الأوطار شرح ملتقى الأحبار من أحاديث سيد الأخيار، ج4، مطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده، ص95.

[52] ينتمي محمد الشوكاني (1250،1172 / 1872،1794م) الي القرن التاسع عشر..

[53] محمد الشوكاني، المصدر السابق، ص 95.

قائمة المصادروالمراجع

أولاً: المصادر

1. القرآن الكريم
2. بلاكمان، وينيفرد، الناس في صعيد مصر، ترجمة احمد محمود، ط 2، الناشر عين للدراسات والبحوث الاجتماعية والانسانية، 2000م.
3. الحشائشي، محمد بن عثمان، 1988م، الرحلة الصحراوية عبر أراضي طرابلس وبلاد الطوارق، مراجعة محمد المرزوقي، الدار التونسية للنشر، تونس.
4. رولفس، 1996م، رحلة عبر الصحراء، ترجمة عماد الدين غائم، مركز جهاد الليبين للدراسات التاريخية، طرابلس.
5. ابن منظور، محمد بن مكرم الافريقي المصري جمال الدين أبو الفضل، لسان العرب، ج 15، ط 3، دار صادر بيروت.
6. موري، فابريتشيو، 1988م، تادرارت اكاكوس، الفن الصخري وثقافات الصحراء قبل التاريخ، ترجمة عمر الباروني، فؤاد الكعبازي، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي.
7. هيرودوت، 2003م، تاريخ هيرودوت، الكتاب الرابع، ترجمة محمد المبروك الدويب، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي.

ثانياً: المراجع

1. أمين، احمد،1996م، ظهر الاسلام، ط5، ج 2، دار الكتب العربية، بيروت.
2. ضحي الاسلام، ط 10، ج 3، دار الكتب العربية بيروت.
3. بدران، ابراهيم، سلوى الخماس، 1988م، دراسات في العقلية العربية – الخرافة- ط3، دار الحقيقة بيروت.
4. البرغوتي، عبد اللطيف محمود، 1971م، التاريخ الليبي منذ أقدم العصور حتى الفتح الإسلامي، دار صادر بيروت.
5. الترمذى، أبي عيسى محمد بن عيسى، 1978، سنن الترمذي، حققه عبد الوهاب عبد اللطيف، ج 2، ط 3، دار الفكرم.